الدولة العثمانية وتسامحها مع غير المسلمين

د. هدى درويش (*)

مقدمة :

نزلت الرسالات السماوية كمنظومة سماوية واحدة منذ نشأة الخلق حتى نهاية الكون، وتمت برسالة الإسلام لتقر بما جاء قبلها من رسالات وأنبياء ورسل، وتؤمن بكل ما أُنزل من قبل الله تعالى منذ خلق آدم عليه السلام حتى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين.

ومن هذا المنطلق الإيمانى أوجب الله تعالى على المسلمين الإيمان والتسليم بالرسالات السماوية التى أنزلت على جميع الأنبياء الذين كرمهم الله، وبهذا تحققت رحابة الإسلام وسماحة الإسلام وتوقير الإسلام لجميع الأنبياء وأممهم وأقوامهم الذين أطاعوهم واتبعوهم وانقادوا لهم وحذوا حذوهم، وساروا على نهج شريعتهم دون تبديل أو تحريف.

من هنا جاء احترام المسلمين لأهل الكتاب ومعاملتهم المعاملة الكريمة طاعة وتكريماً وتوقيراً للإسلام وقرآنه وسنته الشريفة.

والقرآن الكريم يذخر بالآيات الشريفة التى تبرز وجوب معاملة المسلمين لغير أبناء دينهم، حتى وقت المجادلة التى يمكن أن تخرج

(*) مدرس الأديان المقارنة- معهد الدراسات والبحوث الآسيوية- جامعة الزقازيق

بالإنســـان إلى بعض الحدة فى القول، فنجد الله سبحانه وتعالى يوصى المسلمين باختيار الألفاظ الحسنة وانتقاء أحسن الكلمات، ويتمثل ذلك فى قولـــه تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

وبهذا يظهر شمولية الخطاب الذى يشمل الناس كافة سواء كانوا على الإسلام أم غيره، وتلك هى فطرة الإسلام وحضارته مع الآخر.

وكان سبب اختيارنا الدولة العثمانية نموذجاً لسماحة الإسلام أن الدولـــة العثمانـــية مثلـــت دولـــة الخلافة بعد الدولة العباسية، وعاشت وتنوعت على أرضها مختلف الطوائف والملل غير الإسلامية مدة ستة قرون، تمتعت فيها تلك الطوائف بالمعاملة الكريمة وفقاً للمبدأ الإسلامي ﴿لا إكراه فى الدين﴾.

فعـــاش النصارى واليهود والأرمن وكافة الملل والطوائف إلى جانب المسلمين مستظلين بالحماية والرعاية فى أداء عبادتهم، ومتمتعين بكافة الحقوق المدنية والأمنية حتى إنهم شهدوا بحسن ضيافتها لهم وفتح أبوابهـــا لهـــم علـــى مصراعيها ومعاملتهم المعاملة الإسلامية السمحة الكريمة معهم.

أولاً : الدولة العثمانية كوارثة للخلافة الإسلامية :

مثلت الدولة العثمانية بالنسبة للغرب الرمز المجسد للإسلام، كما مثلـــت فـــى الوقـــت نفسه مصدر الرعب فى العالم، فكانت أكبر دولة إســـلامية قامـــت فى التاريخ من حيث المساحة التى امتدت فى قارات العالم الثلاث: آسيا وأفريقيا وأوروبا، أو الزمان الذى امتد بها إلى ستة

قرون بدءاً من القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن العشرين، حيث امتدت فتوحاتها فى الأناضول والبلقان ووصلت إلى فارس وما بين النهرين والشام ومصر والحجاز واليمن والعراق، وبسطت نفوذها على طرابلس وتونس والجزائر، ثم زحفت نحو أوروبا حتى وصلت إلى مشارف فيينا عاصمة النمسا، كما امتد نفوذها إلى بلغاريا ورومانيا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا والمجر وشبه جزيرة القرم وبعض جزر بولندا، ونتيجة لهذا التوسع أصبحت الدولة تحكم شعوباً من مختلف الجنسيات واللغات والديانات.

وكانت الجنسيات تتشكل من الأتراك العثمانيين والأكراد والعرب والتركمان والشراكسة والبربر والسريان والأرمن والألبان واليونانيين وغيرهم، أما اللغات فاختلفت بين السريانية واللاتينية والعبرية والعربية والتركية والكردية واليونانية والمجرية.

عاش على الأراضى العثمانية المسلمون السنيون، وبعض طوائف من الشيعة إلى جانب الطوائف المسيحية من الأرثوذكس والكاثوليك والسريان والأرمن والأقباط والبروتستانت واليهود [1].

ومنذ نشأة الدولة اعتنق أمراؤها وسلاطينها الإسلام منذ عهد مؤسسها الأمير عثمان، الذى أحب الإسلام حباً شديداً، وأخضع حكمه لمشورة فقهاء المسلمين وعلمائهم، وتميز عهده بالعدل والاستقامة بحيث توازنت العاطفة الدينية الجياشة نحو الإسلام مع الروح العسكرية التى

---

[1] عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٩٢م. ص ٩٠-٩٣ (بتصرف)

أخـــذت شكل الجهاد من أجل الإسلام، فلازمت تلك الحالة الدولة طوال تاريخها الذى نتج عنه انتشار الإسلام فى مختلف بقاع العالم.

وكانت الهيئة الإسلامية فى الدولة تتكون من المفتى ويطلق عليه شيخ الإسلام، وكان له نفوذ فى الدولة، وكان السلاطين يحرصون على تدعـــيم ســـلطته ويستشيرونه فى أمورهم، ويخضعون لرأيه حتى وقت الحروب التى كانوا يخضونها، فكان المفتى هو الذى يجيز لهم الخوض فى الحرب سواء كانت هجوماً أم دفاعاً.

ومـــن ســـمات الطابع الإسلامي الذى اتسمت به الدولة عنايتها الفائقة بتشييد المساجد، فكان السلاطين ينفقون عليها أموالاً طائلة بهدف كسب قلوب الشعب عن طريق الدين [١] .

ومـــن المظاهـــر العامـــة الأساسية للإسلام فى الدولة تطبيقها للشريعة الإسلامية والتمسك بالتقاليد الإسلامية مثل احترام شهر رمضان احتراماً شديداً [٢].

وكانـــت قوانيـــن الدولة التى وضعت فى عهد السلطان سليمان والـــتى عرفت بقانون نامه تتفق مع الشريعة الإسلامية، وتحرص على اتباع أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومن جانب آخر كانت الدولة تتولى تنظيم شئون الحج والاهتمام بـــه اهـــتماماً شديداً باعتباره ركناً من أركان الإسلام، كما اتخذ التيار الصوفي السنى وعلماء المتصوفة فى الدولة دوراً مميزاً فى حياة عامة

---

(١) محمد جميل بيهم: العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب، المطبعة الوطنية، بيروت ، ١٩٥٧، ص ١٢٥.

(٢) عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ، ص ٥٦ – ٥٧ .

الشعب وكانت الدولة تمدهم بالأموال والسلاطين، ويولونهم عناية خاصة بهم فى مجالسهم ويخضعون لمشورة المشايخ المتصوفة فى إدارة شئون الدولة.

وكانت من التقاليد الرسمية للسلاطين عند تنصيبهم الحكم وتوليتهم العرش أن يذهب السلطان فى موكب حافل إلى مسجد أبى أيوب الأنصاري فى إستانبول ويتسلم هناك من يد شيخ الطريقة المولوية سيف السلطان عثمان الأول، ثم يتولى مهام منصبه كسلطان للدولة [١].

ويصوّر الجبرتى عظمة إسلام الدولة العثمانية التى عاشت ستة قرون تحت ظل الإسلام: "إن اهتمام السلاطين العثمانيين بإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين، وخدمة الحرمين الشريفين والتمسك فى الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع، أدى إلى تحصين دولتهم ، وطول مدتهم، وهيبة الملوك لهم، كما انقاد لهم المالك والمملوك" [٢].

ومنذ ظهور الدولة شهد العالم عهداً جديداً أطلق عليه عهد الهيمنة الإسلامية، مع احتفاظ الديانات الأخرى بأحقيتها الدينية فعاشوا مع المسلمين جنباً إلى جنب فى ظل التسامح الديني الذى شمل جميع أرجاء الدولة.

هذا وقد اتسمت الدولة العثمانية بمبدأ التعايش السلمي، وتمتع رعاياها غير المسلمين بالحرية الدينية وممارسة شعائرهم فى الكنائس والمعابد التى كانت منتشرة فى كل مكان، وتحملت الدولة مسئولية حمايتهم وحماية ممتلكاتهم.

---

(١) هدى درويش: الإسلاميون وتركيا العلمانية ، دار الآفاق العربية ، ١٩٩٨م، ص٢٥

(٢) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٢٩٧هـ (٢١/١).

وكانت الدولة تنظر إلى هؤلاء الرعايا على أساس المساواة فى الحقـوق والواجـبات بغض النظر عن دياناتهم، فساوت بين المسيحية واليهودية إلى جانب الإسلام، وهو الأمر الذى افتقدته أكثر شعوب العالم فـى ذلـك الوقـت، وبهذا حققت الدولة العثمانية ما لم تحققه أية دولة أوروبـية وذلـك بسبب التزامها بتطبيق الشريعة الإسلامية فى معاملة رعاياها.

وكـان رعايا الدولة غير المسلمين يخضعون لنظام الملل، الذى يقـوم علـى تصـنيف رعايا الدولة على أساس المذهب الديني لهؤلاء الـرعايا، وكان لكل ملة رئيس تابع لكل ملة ينظر فى المسائل الدينية، ويفصـل فـى قضايا الأحوال الشخصية دون أى تدخل من الدولة، وقد كفل هذا النظام للرعايا حق الاستقلال الذاتى[1]. كما كان لكل ملة حقها فـى إصـلاح وترمـيم الكـنائس وبـناء المدارس وامتلاك الأراضى والعقارات.

وكـان مـن أهـم هـذه الملل الروم الأرثوذكس أتباع الكنيسة الأرثوذكسـية الشـرقية اليونانية، وكان مقرها إستانبول ورئيسها كان يسـمى "البطريرك" ويطلق عليه بطريرك "الفنار" نسبة إلى حى الفنار الـذى كانت تقيم فيه هذه الملة، وأتباعه أطلق عليهم "الفناريون"، وكان لهذه البطريركية صلاحيات واسعة دون أى تدخل من الحكومة.

وتأتي فى المرتبة الثانية ملة الروم الكاثوليك ثم ملة الأرمن ثم ملة اليهود.

---

[1] عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق، (٦٨/١).

وكـــان للدولـــة العثمانـــية أسبقيتها على كافة الدول الأوروبية المعاصـــرة لهـــا باســـتقرار رعاياها على كافة المستويات سواء كانت يهوديـــة أم مســـيحية أم مذاهب أخرى حيث عاشوا إلى جانب مسلمى الدولـــة تحـــت ظـــل المساواة والعدالة الاجتماعية نتيجة لالتزام الدولة بأحكام القرآن الكريم وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.

ثانياً : معاملة الدولة العثمانية للكنيسة :

عـــاش الملايـــين من المسيحيين من جميع المذاهب تحت مظلة الدولة العثمانية التى لم تحاول فى يوم من الأيام حملهم أو إجبارهم على دخول الإسلام تطبيقاً للمبدأ التشريعي "لا إكراه فى الدين".

وترجع صلة العثمانيين بالكنيسة إلى عهد السلطان محمد الفاتح عـــند فتحه للقسطنطينية، حيث أمر جنوده أن يتبعوا الشريعة الإسلامية فـــى فتحهم المدينة، وأن يتجنبوا المساس بالكنائس والمعابد بأذى، وألا يمسوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون [1].

وعقـــب فتح القسطنطينية أمر السلطان الفاتح بانتخاب بطريرك جديـــد، فانتخـــب رؤســـاء الكنيســـة والرهـــبان بالإجماع "جورجيوس ســـكولاريوس" بطريركاً ولقب بـــ "جناديوس" وقد منحه السلطان إدارة شئون النصارى روحياً ومذهبياً، كما منحه لقباً عالياً وهو "أس الملة".

---

(١) على حسون : الدولة العثمانية ، المكتب الإسلامي، بيروت ، ١٩٨٣م، ص٣٩ .

وبهـذه الصلاحيات أصبح "جناديوس" رئيساً لطائفة الأرثوذكس داخل الكنيسة وخارجها بتأييد من الدولة التى منحته سلطات الوزير فى الحكومـة العثمانـية، فكانـت سلطته مطلقة، وكان له حق التحدث فى الديوان مدافعاً عن مصالح ملته [١].

وكـان لهذا البطريرك بلاط خاص به لا يستطيع أحد مقابلته إلا عن طريق هذا البلاط وحصوله على إذن خاص، وكان البطريرك يحمل على صدره صورة الصقر وهو الشعار البيزنطي [٢].

وكـان البطريرك هو المسئول أمام الدولة عن طائفته من خلال القسـم الذى كان يقسمه عند اختياره لهذا المنصب، ويعرف هذا القسم باسـم "يميـن نامـه" ويتلوه أمام السلطان فى حضور خمسة أشخاص، ويتضـمن هـذا القسـم "أن يظل مخلصاً للسلطان، وينفذ قوانين الدولة العثمانية ويحترمها، ولا يخونها، وأن يؤدى عمله على أتم وجه، ويكتب للدولة عن كل من تبدر منه خيانة للبلاد".

والواقـع أن بعـض هـؤلاء تناسى هذه المسئولية مستنداً على الحرية التام التى كفلتها الدولة لهم وسماحة الدولة لإدارة مصالحهم دون تدخـل ممـا أدى بنصارى الروم التابعين للدولة العثمانية أوروبا إلى العمـل على الاستقلال عن الدولة والانفصال عنه مما تسبب فى تجزئة الدولة ومن ثم انهيارها [٣].

---

(١) ثـريا شـاهين: دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية ، ترجمة محمد حرب ، جدة، ١٩٩٧م، ص٢٦ .

(٢) المرجع السابق، ص٣٥ .

(٣) ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص ٢٧ – ٢٩ .

وقد تنوعت طوائفهم بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس واليسوعيين واللعازريين والكبوشيين والكرمليين والبربسبيتيريين الذين وفدوا من إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية (١).

واستطاع السلطان محمد الفاتح أن يضم جميع هذه الطوائف تحت إدارة كنائس ارتبطت بالسلطة المركزية، حيث قام بعد فتحه إستانبول بمنح مقام البطريركية لجيناندبوس الثاني، وبطريركية أخرى في أريوان والقدس وأخرى ثالثة في إستانبول كما تم ربط الكنائس الحبشية والقبطية والسريانية ببطريركية الأرمن في إستانبول (٢).

ومن ناحية أخرى منح السلطان سليم الأول بطريركية الروم في استانبول لقب "أوكونيك" بمعنى عالمية.

وقد أظهرها هذا اللقب على شكل بابوية فكانت نواة لمبدأ تحقيق اليونان الكبرى، وقد استخدمت هذه البطريركية من الدين ستاراً لتكثيف نشاطها من أجل تحقيق مبدأ اليونان الكبرى فوق أراضي الأناضول، وقامت بتنظيم حملات رعاية مكثفة لتوحيد الأثوذكس في العالم ضد الدولة العثمانية لتحقيق هذا الهدف (٣).

ونتيجة لهذا انتشرت المدارس الرومية، واستخدمت فيها اللغة اليونانية كلغة رئيسية، وفرضت سيطرتها على معظم بلاد البلقان أوائل

---

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (٩٨/١) .

(٢) أكمل الدين إحسان : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، م٢ ، إستانبول ، ١٩٩٩م، ص١٦٥ .

(٣) ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص ٣٤ .

القرن ١٩، وانتشر فيها الرهبان والتجار الروم والمعلمون أيضاً، الأمر الـذى جعلهم يسيطرون على مجال التعليم، ويلقنون تلك المناطق فكرة المبدأ اليونانى والتقاليد اليونانية، وأصبحت مواعظ ودروس القسس فى الكـنائس هو كيفية توجيه رعايا الدولة نحو الحرية والاستقلال ، وفى المدارس الرومية كانت تمنع تدريس اللغة العثمانية منعاً باتاً.

وقـد أعطت الدولة العثمانية لرعاياها الروم سلطات لا حد لها، حيـث تركت لهم أمور التجارة والبرية والاستيراد والتصدير فأحكموا السـيطرة علـيها، كما كان أغلبية العاملين فى الأسطول العثماني من الروم.

وفـى عهد التنظيمات الخيرية أصدر السلطان عبد الحميد الأول فـرماناً بشـأن الإصـلاحات التى أدخلها فى الدول، تضمنت احترام الحـريات العامة والممتلكات والأشخاص بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية وأصلهم القومي ومساواة جميع الأديان أمام القانون.

كمـا أصدر السلطان محمود الثانى مرسومين خاصين بمعاملة أهـل الذمـة الذيـن يقيمون فى الدولة من اليهود والنصارى، جاء فى الأول: تبعاً لأصول الشريعة الإسلامية صدر تصريح يقضى بالمساواة فى الحرية الدينية لكل المواطنين فى تركيا الذين يتبعون أصول الديانات الثلاث. وفى الثاني: لكى تستطيع كل جماعة دينية أن تمارس فى حرية كاملة تعاليم دينها دون تدخل، نصرح بأن لكل مواطن أن يعبد الله تبعاً لأوامر دينه، وألا يجبر أى شخص على ترك دينه ومعتقده[١].

---

(١) أحمـد نوري النعيمي: أثر الأقلية اليهودية فى سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، رئاسة جامعة بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية ، ١٩٨٢م ، ص٨١ .

ومن أهم الامتيازات التى كفلتها الدولة لرعاياها غير المسلمين ما يلى:

١- انتخاب بطريرك (رئيس ديني) لكل ملة.

٢- حرية ممارسة عباداتهم.

٣- حقهم فى إصلاح وترميم الكنائس.

٤- الحق فى إنشاء وبناء كنائس جديدة.

٥- الحق فى إلحاق أبنائهم فى مدارس الدولة الحكومية والعسكرية والمدنية.

٦- أحقية إنشاء مدارس خاصة بهم للعلوم والفنون والصناعات.

٧- الحق فى امتلاك العقارات.

٨- اتباع مبدأ المساواة بين الطوائف غير المسلمة مع المسلمين فى أمور الضرائب والقضاء والواجبات المدنية[١].

وتطبيقاً لمبدأ المساواة الذى اتخذته الدولة عن الشريعة الإسلامية فى معاملة أهل الذمة والرعايا غير المسلمين المقيمين فى أراضيها، فإنها منحت البطريكية عديداً من المناصب الدينية والمدنية، فاحتل هؤلاء الرعايا وظائف مهمة فى ديوان السلطان، وكان الأروام يقومون بأعمال الترجمة فى الديوان، مما كان له تأثير مباشر على الدولة حيث استخدمها بعضهم فى الإساءة إلى الدولة، فكان منهم من يعمل جاسوساً لحساب الروس ضد الدولة.

---

(١) عبد العزيز الشناوى: مرجع سابق، ص ٩٦ – ٩٨

وعاش هؤلاء عهوداً طويلة تحت السيادة العثمانية فى ظل أحكام الشريعة الإسلامية فى إطار قانون أهل الذمة.

والحــق أن تــاريخ هذه الطوائف لم يحظ باهتمام من الباحثين والمؤرخين، ولم تظهر عنهم دراسات وبحوث مونوجرافية.

المدارس التبشيرية ودورها فى الدولة :

كانت المدارس الخاصة بالرعايا غير المسلمين فى الدولة ترتكز علــى حق الاستقلال القانونى والقضائي فى إطار أحكام الشريعة طوال تاريخ الدولة العثمانية.

وقــد كانت هذه المدارس تبنى فى مبنى ملحق بالكنيسة، وكان القساوسة يقومون بمهمة تعليم أبنائهم مثلما كان مشايخ الإسلام يقومون بتعليم المسلمين فى المدارس الإسلامية.

وكــان للبعثات التنصيرية نشاط مكثف فى الدولة مستتراً خلف النشــاط التعليمي والثقافي عن طريق إنشاء مؤسسات ومدارس ومعاهد وكلــيات أخــذت صــفة المســيحية خاصــة فى بلاد الشام، حيث قام البروتســتانت الأمريكيون بإنشاء مدارس فى بيروت والقدس فى الوقت الذى اشتد فيه الخلاف بين البروتستانت والكاثوليك، ونجح الأمريكيون فى تحويل عدد كبير من الكاثوليك إلى المذهب البروتستانتى عن طريق تلــك المــدارس وذلك خلال أعوام ١٨٣٩ – ١٨٧٣م، وتركزت جهود البعثات التنصيرية فى بلاد الشام نظراً لتزايد أعدادهم فى بلاد الشام إلى

جانـــب معرفـــتهم باللغات الأجنبية إلى جانب العلاقات الوثيقة بين بلاد الشام وأوربا وتأثرهم بالحضارة الغربية والفكر الغربى.

هـــذه البعثات أداة فى أيدي الحكومات الأوروبية لبسط نفوذها السياســـي والثقافي والديني على الدولة العثمانية، الأمر الذى هدد الدولة بشكل مباشر، وأدى إلى انتزاع العديد من الولايات من أيدى الدولة.

ومـــن ناحـــية أخـــرى استخدمت البعثات النزعة الدينية لإذكاء الـــروح القومـــية فى أقطار الشرق العربي متخذين من التنصير ذريعة لإنشاء مراكز قوى داخل ولايات الدولة(١).

وقـــد أقيمت أول مدرسة فى القرن السادس عشر بامتياز خاص منحه السلطان سليمان القانوني لملك فرنسا فرانسوا الأول، وكانت هذه المنحة بداية لما عرف بمشكلة الأقليات وحقوق الامتيازات الأجنبية التى أحدثت فى الدولة العديد من المشاكل.

وكانـــت المـــدارس المســـيحية فى بداية الأمر مدارس رهبانية يديرها زعماء روحانيون بهدف التعليم الدينى وتنشئة رجال الدين وبعد النصـــف الثانـــي من القرن الثامن عشر، ومع الثراء الذى ظهر على طائفتـــي الـــروم الأرثوذوكس والأرمن بدأت تظهر مظاهر العلمنة فى مفاهـــيم التعليم، حيث تم تأسيس مؤسسات تعليمية جديدة ليس لها علاقة بمـــدارس الرهـــبان، وكانت أول مدرسة تقام على هذا المنهج مدرسة "قورو جشمه روم مكتبى" تابعة لأثرياء الروم الذين يقيمون بحى الفنار

---

(١) انظر عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (١٠٦/١).

فـــى إستانبول وقد أصدر السلطان سليم الثالث فرماناً بافتتاحها، وتقوم بمهمـــة تعليم اللغة والأدب والرياضيات، وكانت بمثابة كلية كبيرة تضم داخلها مستشفى وداراً للعجزة ومدرسة للطب، وتوسعت هذه المؤسسات فى القرنين التاسع عشر، وازدادت زيادة مطردة فأقيمت جامعة بيروت الأمريكـــية عام ١٨٦٧م، ومدرسة طب سان جوزيف الكاثوليكية التى أقامهـــا الفرنســـيون فـــى بـــيروت عام ١٨٨٨م، وكان لتلك المدارس التبشيرية دور كبير فى ظهور حركات سياسية مناهضة للدولة العثمانية واستخدم عدد كبير منها ضد وحدة الأراضي العثمانية(١).

تمليك الأراضي والعقارات للأجانب فى الدولة :

طبقـــت الدولة العثمانية نظاماً خاصاً للأجانب المقيمين بالدولة، فمنحـــتهم حق التصرف وامتلاك الأراضي والعقارات فى جميع أنحاء الدولـــة عـــدا منطقة الحجاز، تلك الامتيازات منحت الأجانب الحق فى الإشراف على مدارسهم الخاصة دون رقابة من الدولة عليها.

الدولة العثمانية والجزية:

كـــان نظام الجزية الذى فرضته الدولة على المسلمين فى البلاد المفـــتوحة يســـقط الجـــزية عن كل من يلتحق بالجيش الإسلامي، ومن يـــرفض الالـــتحاق بالجيش فعليه أن يدفع جزية بديلة عن اشتراكه فى الجيش.

---

(١) أكمل الدين احسان : مرجع سابق ، ص.٥٩٤، ٥٩٥ .

وأوجبت الدولة الجزية على رعاياها من أهل الكتاب مثلما يلتزم المسلمون بدفع الزكاة، حتى يتم تطبيق مبدأ التكافؤ بينهما، وتم أخذها على أقساط بهدف التيسير على من ليست لديه القدرة على دفعها بأكملها، وتم إعفاء المساكين والطاعنين فى السن والرهبان[1].

وكانت جباية هذه الجزية تتم بالرفق بهم وتوخى العدل وحمايتهم بتوصية الخلفاء المكلفين بجبايتها.

اليهود في ظل الدولة العثمانية:

فى زمن سلاجقة الأناضول كان اليهود يشكلون جاليات صغيرة أخذت فى الازدياد بعد هجرتهم من فرنسا عام ١٣٩٤م، ومن بافييرا عام ١٤٧٠م، ثم من أسبانيا عام ١٤٩٢م، وبعد هجرتهم إلى سالونيك وأزمير وإستانبول حدث اطراد فى أعدادهم، وأقيمت لهم حاخامية خاصة تربط جميع الطوائف اليهودية بالسلطة المركزية العثمانية[2].

وقد فتحت الدولة العثمانية أبوابها على مصراعيها لليهود النازحين إليها من مختلف البلاد الأوروبية الفارين من محاكم التفتيش التى خيرتهم بين النفى وبين التنصر، فكانت الدولة العثمانية هى طوق النجاة الذى عثر عليه اليهود الفارون من المعاناة التى لاقوها فى تلك الشعوب.

---

(١) موفق بنى المرجه، صحوة الرجل الأبيض، مؤسسة صقر الخليج، الكويت ، ١٩٨٤، ص١٧٥ .

(٢) أكمل الدين إحسان: مرجع سابق، ص١٦٦ .

وقد قامت الدولة بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية حيث سمحت لهم بممارسة شؤونهم الدينية، ومنحت الحاخام اليهودي حق تمثيل اليهود أمام الحكومة والنظر فى قضاياهم طبقاً للشريعة اليهودية[1].

وكان من مهام الحاخام تحديد ضرائب الطائفة اليهودية التى تعيش فى الدولة، وكان له الحق فى اختيار الرؤساء المحليين الذين كانت لهم مكانة رسمية فى الدولة، كما سمحت الدولة لهؤلاء اليهود بالإقامة فى الدولة كمستوطنين، وكفلت لهم حرية العمل فى الدولة فى كل فروع التجارة والصناعة والعلم والطباعة، ووصلوا إلى مراكز مرموقة فى الدولة، فكان منهم التجار وكبار رجال الأعمال والأطباء ومنهم أيضاً من تقلد منصب وزير المالية والأشغال والسكان، وأعطتهم الدولة حق إنشاء مدارس خاصة بهم وإدارة شئونهم التعليمية، إلى جانب أحقيتهم فى ممارسة عباداتهم وطقوسهم وإنشاء المعابد لإقامة شعائرهم الدينية فيها، إضافة إلى السماح لهم بالحج إلى الأماكن المقدسة.

وقد عامل السلاطين العثمانيون اليهود المعاملة الكريمة التى أمر بها الإسلام وفقاً للشريعة الإسلامية، ومن السلاطين الذين أحسنوا معاملة أهل الكتاب وخاصة اليهود الأمير أورخان بن عثمان ثانى حكام الدولة العثمانية ، كما أذن لهم ببناء صومعة كانت ما تزال تمارس نشاطها حتى الأربعينات من القرن العشرين.

---

(١) رفيق شاكر: السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩٠م، ص٣١.

والأمـــير مراد الأول الذى سمح لليهود بالإقامة فى مدينة أنقرة بعدما حولها إلى عاصمة للدولة بعد بروسة وعاشت فيها أكبر الطوائف اليهودية[١].

أمـــا الأمـــير مراد الثاني فقد أعطى لليهود حق امتلاك أراضى بالدولـــة حيـــث لقبه اليهود "بالرجل الإنساني الكبير"، كما سمح بهجرة الـــيهود إلى الدولة بدون قيد أو شرط، وعند فتحه لأدرنه أعطى لرئيس حاخاماتها السيادة على كافة يهود الروملى[٢].

أما السلطان محمد الثانى فاتح القسطنطينية فعلى الرغم من فتحه لـــروما الشـــرقية البيزنطـــية وطرابزون، وكان يلقب باسم إمبراطور الأتـــراك وروما الشرقية إلا أنه لم يتخذ موقفاً معادياً تجاه الأديان، فقد رحـــب بالـــيهود وزادت امتـــيازاتهم فى عهده وسمح لهم بالهجرة إلى إســـتنابول وأســـكنهم فى حى خاص بهم، كما أعطى لليهود حق وضع الصور فى معابدهم، وألا يمنعوا من قراءة التوراة بشكل علنى[٣].

وفـــى عهده برزت طائفة الأطباء اليهود، وأصبحت لهم شهرة واسعة، وعلى رأسهم الحكيم يعقوب الذى ادعى أنه اهتدى إلى الإسلام وكـــان اســـمه Macstro Lacopo قـــيل إنه هو الذى تسبب فى مقتل

---

(١) أحمد عثمان : تاريخ اليهود، (١١/٣)، مكتبة الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م.

(٢) عـــايدة العلى: دولة المثلث بين فكى الكماشة، دار الفكر العربى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٣٢٢ .

(٣) A.R.C. a. g. e. s. ٨٥-٨٦ .

لسلطان الفاتح، حيث وضع له السم بصورة تدريجية فى الدواء مقابل رشوة[١].

هذا وقد اشتهر السلطان محمد الفاتح بمقولته فى حق اليهود التى جاء فيها "ليرتقوا منزلة العرش العالى، ويستوطنوا أفضل أرض، تحت شجر الأعناب العائدة لهم مع الفضة والذهب مع الثروة والأنعام"[٢].

أما السلطان بايزيد الثانى فكان من أكثر السلاطين تسامحاً مع اليهود فى الدولة، فقد أسكن الكثير منهم فى سلانيك وهو الذى عرض تقديم ملاذ لهم فى الدولة وأرسل ما عرف بـ "سفن الرحمة" لجلب اليهود وإنقاذهم من محاكم التفتيش الأسبانية، وعبر عنهم بقوله: إننى مندهش من الذين يقولون أن فرديناند ملك أسبانيا ذكى، فهو يضعف دولته ويغنى أرضى"[٣].

والسلطان سليم الأول أقر لزعماء اليهود الدينيين بكافة الصلاحيات وربطهم بالعاصمة إستانبول، ولقب كل زعيم منهم بلقب "نجد" أو "ريس" وأعطى كل جماعة يهودية حق حكم نفسها تحت سلطة حاخامها المحلى[٤].

---

(١) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، (١٧٧/٢) مؤسسة فيصل بالتمويل ، تركيات، استانبول، ١٩٩٠م.

(٢) أحمد نورى النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٣٣ .

(٣) عايدة العلى، دولة المثلث ، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٣٢٢ .

(٤) كلمة السعيد حبيب: الأقليات والممارسة السياسية فى الخبرة الإسلامية – دراسة حالة الدولة العثمانية – رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ١٩٩٥م (٣٥٠/٢).

ومما يجدر ذكره أن اليهود أنفسهم اعترفوا بفضل معاملة الأتراك وقد كتب الحاخام "إسحق" رسالة إلى اليهود فى العالم يصف فيها وضع اليهود فى الدولة العثمانية جاء فيها: "أعلن إليكم أن تركيا هى الأرض التى لا شئ يفتقد فيها، فالجميع طيبون معكم، والطريق للأرض المقدسة مفتوح لكم عبر تركيا، أليس من الأفضل لكم أن تعيشوا تحت حكم المسلمين أكثر من حكم المسيحيين ، هنا يسمح لكم بأن تلبسوا أروابكم وملابسكم اليهودية[١].

وبمناسبة الذكرى المئوية الرابعة لنزوح اليهود إلى الدولة العثمانية من أسبانيا نشرت صحيفة يهودية عام ١٨٩٢م رسالة جاء فيها "عندما وصل هؤلاء الذين كان كل شئ بالأمس يلعنهم إلى إستانبول بائسين عراة سمعوا لأول مرة صوتاً يقول لهم: أهلاً بكم أهل الكتاب"[٢].

هذا وقد جدد اليهود امتنانهم للأتراك بفتح أبوابها لهم أثناء الاحتفال الذي أقاموه فى يوليو ١٩٩٢م بمناسبة مرور ٥٠٠ عام لنزوح اليهود من أسبانيا ولجوئهم إلى الدولة العثمانية حيث حضر الاحتفال حايم هيرتسوج رئيس الكيان الصهيوني، ففى أثناء لقائه مع أوزال وديميريل عرض شريط فيديو لجورج بوش أشار فيه بوش إلى أن

---

(١) أحمد نوري النعيمى، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٢٢/٣٠

Guleryuz, Naim, The History of the Turkish Jews", p.٣٠

(٢) أحمد نوري النعيمى: اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣٣/٣٧ .

معايشـــة الـــيهود فى تركيا منذ ٥٠٠ عام إنما هو مثال لإمكانية تعايش اليهود مع المسلمين فى سلام وأمان[١].

أما السلطان سليمان القانوني فقد كان متزوجاً من يهودية تدعى روكســـيلانة، وكـــان لهـــا نفوذ كبير فى القصر السلطانى، وعند فتح الســـلطان سليمان لجزر رودس أعطى اليهود امتياز حق صناعة معدن كبريـــت إينجرلى فأعطاهم إمكانية الثراء، كما قام بفك أسر اليهود من بودين وبودابست إلى الدولة وأسكنهم سلانيك كما أعاد بناء أسوار مدينة القدس وسمح لليهود باستيطان بعض أجزاء من فلسطين[٢].

وبعـــد استيلائه على المجر جلب معظم الذين كانوا يقيمون فيها إلى بلاده ومنحهم حق الحماية.

وقد وصف اليهود معاملة السلطان سليمان لهم بقولهم: "لقد جاء المسيح المنقذ، وجلب لنا السعادة"، وصرحوا أن الطريق إلى تركيا هو طريق الحياة بالنسبة لهم[٣].

أمـــا السلطان سليم الثانى فقد منح اليهود ألقاباً عالية فى بلاطه، وبرزت فى عهده شخصيات يهودية كان لها نفوذها وتأثيرها الكبير فى الدولـــة مـــن هؤلاء "إبراهيم كاسترو" الذى عينه السلطان وزيراً للمالية و"يوسف ناسى" وكان من كبار العاملين فى الأمور المالية والمصرفية، وكان يمتلك شركات تجارية كبرى، وقد منحه السلطان سليم الثانى لقب دوناكســـون صـــاحب الـــبحر الأبـــيض، وزعيم اليهود وكان من كبار

---

(١) وزارة الخارجية العراقية ن العدد ٤٥٠ فى ١٩٩٢/٧/١٨م.

(٢) Abdurrahman Kucuk, Donmeler Tarihi, Ankara, s. ١٠٢ .

(٣) أحمد نورى النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣٤ .

المشـــجعين لهجـرة اليهود لفلسطين، هذا وقد منح السلطان سليم أيضاً اليهود فى عهده حق زيارة الأماكن المقدسة.

أما السلطان عبد الحميد الثانى فكان يتخذ تقليداً فى عيد الفصح، حيث كان يقوم بتوزيع الأموال على فقراء اليهود، كما أنعم على حاخام الطائفـــة الإســـرائيلية بمصر بأن منحه الوسام الحميدى، وكان يحرص علـــى مشـــاركة الـــيهود فـــى الانتخابات البلدية، وقد شهد المستشرق الهـــنغارى "أرمينيوس فامبرى" على حسن معاملة السلطان عبد الحميد الـــثانى للـــيهود ومســـاواته لحاخام تركيا الأكبر ، إلا أن السلطان عبد الحمـــيد كـــان يفـــرق بين اليهود رعايا الدولة وبين الحركة الصهيونية وأطماعها فى الاستيلاء على فلسطين حيث تصدى للأطماع الصهيونية فـــى فلسطين حفاظاً على الأماكن المقدسة الأمر الذى أدى به إلى فقدان عرشه[1].

وقـــد قام السلاطين العثمانيين بتطبيق مبدأ تعدد الزوجات الذى جـــاء بـــه الإسلام والتزموا بالعدد الذى ورد فى القرآن الكريم وهو ألا يحتفظ الزوج بأكثر من أربع زوجات، وقاموا بتحقيق مبادئ الإسلام فى عدم جواز أن يرغم الزوج المسلم زوجته الكتابية على دخول دينه، كما لا يجـــيز الإسلام أن يمنعها من أداء عبادتها وشعائرها الدينية، بل إن بعـــض المذاهب الإسلامية الفقهية أوجبت على المسلم أن يصحبها إلى مكان أداء عبادتها سواء كانت كنيسة أم دور عبادة خاصة بها.

---

(١) هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، (٣٦٥/١ وما بعدها)، دار القلم، دمشق، ٢٠٠١م.

وقــد سمح الأمير عثمان مؤسس الدولة إبان نشوء الدولة لابنه أورخان بالزواج من سيدة يونانية مسيحية كان يطلق عليها اسم نيلوفيير بمعــنى زهــرة اللوتــس قد أنجبت له ابناً تولى العرش من بعده وهو السلطان مراد الأول الذى تزوج هو الآخر من ابنة ملك بلغاريا.

أمــا السلطان بايزيد الأول فقد أراد يتخذ من دولة الصرب دولة حليفة له فتزوج من أوليفيرا ابنة ملك الصرب.

كما تزوج السلطان مراد الثانى ابنة أمير الصرب وتدعى مارا، وقــد أثمــر هذا الزواج ثماراً طيبة فى مجال علاقات الدولة بالخارج وكانت سبباً فى توثيق الصلات بين الدولة العثمانية ودولة الصرب.

أمــا الســلطان سليم الثاني فقد تزوج من يهودية أيضاً وتدعى نوربــانو وهــى الــتى أفســحت المجال لليهود للتغلغل داخل القصر السلطانى[1].

وكــان السلاطين السبعة الأوائل من عثمان حتى السلطان محمد الفــاتح متزوجين من نساء حرائر بعقود زواج شرعية، وبعد السلطان الفــاتح اتجــه الســلاطين إلى جوارى القصر، وكان كل سلطان يرفع الجوارى إلى منزلة عالية بعد عتقها فى حالة إنجابها ولد له فتصبح من مجرد جارية ملك يمين السلطان إلى سيدة يطلق عليها " قادين "، وكانت تظفــر بالامتــيازات الــتى تمــيزت بها السلطانة من حيث الاحترام وتخصــيص جــناح خاص لها وترصد لها اعتمادات مالية ويرتب لها حــرس خاص بها، فحظيت بالمعاملة الكريمة تطبيقاً لأحكام الإسلام فى

---

(١) A.R. Kucuk, a. g. e. s. ١٠٧.

معاملـــة الرقيق تحقيقاً لقول الرسول صلوات الله عليه "أيما رجل ولدت منه أمته فهى معتقة عن دبر منه"[1].

هـــذا وقد نجم عن تعدد الزوجات فى القصر السلطاني مشكلات انعكســـت على الدولة، إذ كانت كل أم لمولود ذكر تسعى إلى أن يكون ابـــنها ولـــياً، للعهـــد فحيكت المؤامرات بينهن، وشاع جو من التنافس والتناحر بين الأخوة غير الأشقاء مما أحدث خللاً فى نظام الدولة[2].

المدارس اليهودية فى الدولة العثمانية :

انتشـــرت المـــدارس اليهودية فى الدولة العثمانية انتشاراً كبيراً تطبيقاً لمبدأ الحرية المذهبية الذى منحته الدولة فى التعامل مع الطوائف غير المسلمة المقيمة بالدولة، حيث منحتهم حرية إقامة مدارس خاصة، وسمحت لهم بحرية تدريس ما يرونه من مناهج دون تدخل أو رقابة من الدولة.

لذا انتشرت المدارس اليهودية التى كانت تمول عن طريق كبار الشخصيات اليهودية الثرية فى أوروبا أمثال عائلات روتشيلد وهيرش، وكانـــت مدارسهم تنقسم إلى قسمين: مدارس دينية محافظة تقوم بمهمة تعليم الدين اليهودى تعرف باسم "تلمود توراة" ، ومدارس حديثة تكونت بعـــد حـــركة التنظيمات فى الدولة وكانت تهتم بالثقافة الأجنبية وتقليد الغرب.

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٣٤٦/١٠) وبنحوه الدارقطنى فى سننه (١٣١/٤) والإمام أحمد فى مسنده (٣١٧/١).

(٢) انظر عبد العزيز الشناوى مرجع سابق، ص٥٥٩ – ٥٩٧ (بتصرف).

وقد انتشرت هذه المدارس انتشاراً كبيراً فى الشام وبغداد بالإضافة إلى أدرنة وسلانيك وإزمير وخاص كوى وغالاطة والروملى وغيرها.

وفى بداية القرن التاسع عشر تأسست مدرسة يهودية حديثة أسسها إبراهيم دكماندو عام ١٨٦٤م أحدثت صراعاً بين الحاخاميين المحافظين والعلمانيين، واستمر تأسيس المدارس اليهودية على يد الإليانس[١]. حتى وصل عددها فى بروسة وجناق قلعة وإيدن من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مدرسة يهودية للبنين والبنات.

الدولة والمؤسسات الأجنبية :

وكان للمؤسسات التعليمية الأمريكية دور بارز فى الدولة العثمانية منذ عهد التنظيمات، وكان هدف تلك المؤسسات إيقاظ الحركة الانفصالية للشعوب التى تقع تحت حكم الدولة مثل الأرمن والبلغار، وكانت لتلك الامتيازات الذى كفلته الدولة لرعاياها فيما عدا السلطان عبد الحميد الذى قام بمراقبة دور هذه المدارس الأمريكية وأهدافها والتى تخرج منها الكثير من رجال الدولة الأتراك والقادة وأصحاب النفوذ أمثال بولند أجاويد رئيس وزراء تركيا السابق وتانسو تشيلر

---

(١) الإليانس : هيئة تكونت من اليهود الفرنسيين بهدف مساعدة اليهود والدفاع عنهم عن طريق المؤسسات التعليمية اليهودية الموجودة فى كل مكان، وانصبت جهودها على تأسيس المدارس بمساعدة ودعم أغنياء اليهود، وضمت إليها لجنة إقليمية لمساعدة ضحايا المجاعات من اليهود فى أوروبا ومساعدة ضحايا الحرب العلمية الأولى منهم ومساعدة المستوطنين اليهود فى كل مكان ، وكان لها نشاط تعليمى واسع، وقامت بنشر فكر حركة التنوير الأوروبية فى أوساط يهود الشرق (هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية ، (٢/ ٧٦-٨٢)، مرجع سابق.

رئيسة الوزراء السابقة أيضاً وعدد كبير من مشاهير الكتاب وأصحاب المناصب الكبرى[1].

وانتشـــر فى الدولة أيضاً عدد كبير من المدارس الإيطالية التى كانت تحتوى على بيوت للطلاب وملاجئ للأطفال اليتامى، وأقسام منها لتعلـــيم الخياطة والتطريز وإدارة المنزل، وكان يدرس بها أعداد كبيرة مـــن الذكـــور والإنـــاث، وكـــان الرهبان هم القائمين على تأسيس هذه المدارس وكانت اللغة الفرنسية والألمانية من اللغات الأساسية فيها إلى جانب الإيطالية.

كما انتشر عدد كبير من المدارس فى المدارس الفرنسية، وكانت تحمـــل ســـمات دينـــية خاصة لتعليم الدين لصغار السن، ومن أهم هذه المـــدارس – مدرسة سان جورج الفرنسية، ومدرسة سان بير الفرنسية ومدرســـة نوتـــردام دى سيون ومدرسة سان بوليكار الفرنسية، وكانت تحمل سمات دينية فى شئون تعليمها، كذلك معهد سان جوزيف الخاص الفرنســـى وكان لهذا المعهد أهمية فى المجال التجارى الذى سار على نهـــج المعهـــد العثمانى التابع لوزارة التجارة العثمانية فى ذلك الوقت، وكـــان الطـــلاب المســـلمون يلـــتحقون بهذا المعهد إلى جانب الطلاب الأجانب مما يظهر استبعاد عنصر العصبية المذهبية منه[2].

هـــذا وقـــد كشفت التقارير الخاصة بنظارة المعارف أنه يوجد بالدولـــة ٤٥٤٧ مدرســـة منها ٤١٣ مدرسة أجنبية، أما المدارس غير المرخصة فبلغ عددها ٤٠٤٩ مدرسة.

---

(١) هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية، مرجع سابق، ج٢، ص٨٣-٩٢ .

(٢) أكمل الدين إحسان: مرجع سابق، م٢، (٢/٥٩٥-٥٩٧) .

وكانت مدارس الطوائف الأرثوذكسية تحت حماية الروس ومدارس الفرنسيين والألمان تحت حماية الأرمن والكاثوليك.

أما الإنجليز والأمريكيون فكانوا تحت حماية الأرمن البروتستانت، ولم يُسمح بتدريس اللغة التركية فى مدارسهم، وفى عام ١٩١١م كان لدى الأجانب بالدولة عشر مدارس عالية و٤٦ مدرسة إعدادية و١٤٥٠ مدرسة ابتدائية يدرس فيها ٦١٦٧٨ طالب، وكان للروم اليونانيين ٣٥٠٠ مدرسة وللأرمن ٢٥٠٠ مدرسة وجميع هذه المدارس لم يتحقق فيها أى نوع من الرقابة[١].

وظل هذا الأمر حتى قيام حرب الاستقلال التى تم بعدها ربط كافة المدارس بنظارة المعارف طبقاً لقانون توحيد التدريس الذى صدر فى ٣١ مارس ١٩٢٤م.

آثر تسامح الدولة مع اليهود

أدى تسامح الدولة المفرط مع الطوائف غير المسلمة وخاصة اليهودية أن استغلها اليهود بشكل أضر بالدولة، وجعلهم يشكلون دولة داخل دولة محققين دعامتين أساسيتين ارتكزتا على الهيمنة الاقتصادية من خلال تشجيع الدولة للعائلات الثرية اليهودية بتأسيس البنوك الخاصة والحكومية وعلى رأسها عائلات الاتيني ومزراحى وروتشيلد، ومن أهم الشخصيات اليهودية التى ظهرت فى الميدان التجارى والتى كان لها تأثير كبير على الدولة شخصية "يوسف ناسى" الذي شغل منصب مستشار السلطان سليمان القانونى ومنّح امتيازاً على مدينة طبرية مع

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٩٧ .

سبع قرى مجاوره استثمره لصالح اليهود فى هجرتهم إلى فلسطين، وتلا السلطان سليمان السلطان سليم الثاني الذي منحه لقب دوق دوناكسون "صاحب البحر الأبيض" كما منحت الدولة أيضاً منصب وزير المالية لجاويد بك الذي قام بعقد الصفقات وإدارة الأموال اللازمة لهجرة اليهود.

والدعامة الثانية التى ارتكز عليها اليهود فى الدولة هى السيطرة على وسائل الإعلام، فقد قام رجال اليهود الأثرياء بتمويل الصحف المناهضة للدولة لخدمة أغراض اليهود إلى جانب إنشاء وتأسيس المدارس اليهودية التى قامت بتلقين الشباب الفكر القومى ودعوتهم لتقليد الغرب بغرض التوجه إلى التحديث، أما الصحف فقد وجهوها إلى الدعوة إلى سفور المرأة حتى تواكب الحضارة الغربية الحديثة، وإلى تأليب الرأى العام التركى ضد الخلفاء والتوجه إلى علمنة الدولة والبعد عن المظاهر الإسلامية وإلى تشجيع الإلحاد، وقد وصلت الدولة فى منح المناصب الوزارية والمراكز الكبرى لهم إلى أن أصبحوا يستخدمون سلطاتهم فى زعزعة الأمن الداخلى للدولة وإشعال الفتن الطائفية وإثارة القلاقل ومثال هذا ما قامت به فئة يهود الدونمة(١).

ومن جانب آخر أفسحت الدولة العثمانية المجال للجمعيات الماسونية التى انتسبت إليها شخصيات تركية ظناً منهم أنها تسعى لخدمة العالم من خلال مبدئها العام (الحرية – المساواة – الإخاء) إلا أنها تكشفت أهدافها الصهيونية بسبب جذورها التوراتية التلمودية والفكر القبالى الذى يستند على أفكار فلسفية وتعاليم روحية تعتبر اليهود

---

(١) موفق بنى المرجة: مرجع سابق، ص١٨٤(بتصرف) .

والماسونيين هما الأبناء الروحيين لبناء هيكل سليمان[1]. وهذه المنظمات الماسونية هى التى ساهمت مساهمة فعالة فى الإطاحة بالسلطان عبد الحميد تحت ستار الحماية الدبلوماسية لها.

من ناحية أخرى كان ليهود الدونمة دور خطير فى القضاء على الدولة العثمانية فقد كان لهم دور كبير فى التحكم فى اقتصاد الدولة وتغلغلوا داخل مؤسسات الدولة فكانت لهم سيطرتهم المباشرة على توجيه الإعلام والتحكم فى الصحف ووسائل الإعلام المختلفة التى كانوا يمتلكونها بما يخدم أغراضهم، ومن ثم قاموا بدور كبير فى التأثير على الفكر التركى المسلم وتوجيهه إلى الأفكار الملحدة والدعوة إلى تقليد الغرب وتشجيع العلمانية والدعوة إلى سفور المرأة واختلاط الشباب بالفتيات بدعوى تحديث الدولة إلى جانب نجاحهم فى القضاء على الخلافة الإسلامية التى كانت ممثلة فى الدولة العثمانية.

وكان من نتائج تسامح الدولة العثمانية وتطبيقها الأحكام الإسلامية أن أصبحت نافذة للتدخل الأجنبى المباشر الذى قام بدوره بإشعال نيران الفتن والخلافات بين الطوائف غير المسلمة بهدف الحصول على النفوذ والمكاسب فى الدولة، إلى جانب تنشيط الحركات الانفصالية القومية فى الأجزاء الأوروبية من الدولة مثل رومانيا وبلغاريا وصربيا وألبانيا واليونان، والعمل على تغيير أوضاع المسيحيين واليهود عن طريق الحصول على جنسيات أوروبية فيصبح

---

(١) جواد رفعت أتلخان: أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين رضا، المختار الإسلامى، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ١٠-١٩ .

لهـــم حق الامتيازات الأجنبية، بالإضافة إلى افتتاح العديد من المدارس والمعـــاهد الأجنبـــية لنشـــر أفكار الغرب فى الدولة، وإذكاء الخلافات وتعميق النعرات العنصرية والمذهبية والطائفية للتدخل فى شئون الدولة الداخلـــية – وتمثلت تلك العنصريات فى الإمارات العلوية والتركمانية والكردية والدروز والعمل على إقامة دولة مارونية، هذا إلى جانب قيام اليهود بتغذية وإثارة المشاكل العنصرية والإقليمية وخاصة تبنيها لمشكلة الأقلـــيات، وقـــد تجلى هذا الموقف فى تصريح ناحوم جولدمان رئيس الـــرابطة الـــيهودية العالمية فى خطابه الذى ألقاه فى باريس فى مؤتمر اليهود المثقفين عام ١٩٦٨ الذى جاء فيه:

"إذا أردنـــا لإسرائيل البقاء والاستقرار فى الشرق الأوسط فعلينا أن نفســـخ الشـــعوب المحيطة بها إلى أقليات متنافرة تلعب إسرائيل من خلالهـــا دوراً طليعياً وذلك بتشجيع قيام دولة علوية فى سوريا، ودولة مارونية فى لبنان، ودولة كردية فى شمال العراق[1].

من ناحية أخرى كان للدور النسائى الأجنبى أثر كبير فى انهيار الدولـــة والتدخل فى الشئون الداخلية أمثال روكسلانة اليهودية الروسية زوجـــة السلطان سليمان القانونى التى حققت نجاحاً فى تقارب السطان ســـليمان لملـــك فرنســـا فرانسو الأول الذى منحه السلطان لقب "حامى النصارى العثمانيين" وعن طريقه تحقق نظام الامتيازات الأجنبية وهى

---

(١) انظر جريدة الأنباء الكويتية، مارس ، ١٩٨٤م.

الـــتى دبـــرت مقـــتل الصـــدر الأعظم (رئيس الوزراء) إبراهيم باشا. واســـتعطفت الســـلطان سليمان لقبول إيواء يهود الأندلس. والسماح لهم بالاستقرار فى الدولة.

أمـــا اليهود فكان انهيار الخلافة الإسلامية التى كانت تتمثل فى الدولة العثمانية على يد طائفة "يهود الدونمة" الذين تخفوا وراء الإسلام واتخـــذوا هويتيـــن متناقضتين: اليهودية المتأصلة والإسلامية المزيفة؛ فجسدوا دور المنافقين المراءين وهم الذين بذروا بداية الفكر الصهيونى فى العالم.

إلـــى جانب امتلاكهم الأجهزة الإعلامية التى عملت على تأليب الـــرأى العـــام ضد الدولة لخدمة أغراضها ومواجهة كل من يعترض عليهم.

وظهـــور فكـــرة القومـــية وانحياز العرب القوميين إلى إنجلترا وفرنسا ضد الدولة. والعمل على محو الإسلام وتشجيع الكتب والصحف الملحدة والدعوة إلى التغريب.

وإضـــافة إلـــى هذا كله كان الغزو الروسي وأثره على السياسة العثمانـــية باعتـــبار روسيا حامية للمسيحيين فى الدولة حيث استطاعت اقتطاع تركستان ١٨٨٤م والسيطرة على القوقاز[١].

---

(١) ضـــابط تركى: الرجل الصنم.. كمال أتاتورك، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، بيروت ١٩٧٨م، ص٣٨٦، ٤٩٤ .

obeikandl.com

ومع هذا فلم يسجل تاريخ الدولة العثمانية على اختلاف عهودها حادثـــة اضـــطهاد ديـــنى واحدة بل طبقت منهج الشريعة الإسلامية فى الـــتعامل مع أهل الذمة فحفظت أعراضهم وأموالهم وأملاكهم وأديانهم وأماكن عبادتهم ومقدساتهم.

خاتمة

يتضح من استعراض هذه الأوراق أن الدولة العثمانية وريثة دولة الخلافة العثمانية، قد طبعت مبادىء الإسلام المتمثلة في التسامح مع غير المسلمين ومنحهم كافة الحقوق والامتيازات التي يقرها لهم وفقا لقاعدة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)، لذلك لم يّظطهد أحد ولم يِحرم من أي حق من حقوقه ولكن الدولة أسرفت غي منح الحقوق، حتى أصبح نظام (الامتيازات الأجنبية) أحد الأنظمة التي أسهمت في انهيار دولة الخلافة حيث عظم نفوذ الأجانب وخاصة اليهود الذين أخذوا يسيطرون على مختلف الأمور في دولة الخلافة، ويدبرون الخطط لكي يسقطوا دولة الخلافة، وتم لهم ذلك في النهاية.

المصادر والمراجع

١- أحمد عثمان: تاريخ اليهود، مكتبة الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م.

٢- أحمد نورى النعيمى: أثر الأقلية اليهودية فى سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، رئاسة جامعة بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٢م.

٣- أكمل الدين إحسان: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إستانبول، ١٩٩٩م.

٤- ثريا شاهين: دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية، ترجمة محمد حرب، جدة، ١٩٩٧م.

٥- جواد رفعت أتلخان: أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين رضا، المختار الإسلامى، القاهرة، ١٩٧٥م.

٦- رفيق شاكر: السلطان عبد الحميد الثانى وفلسطين، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٠م.

٧- ضابط تركى: الرجل الصنم.. كمال أتاتورك، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، بيروت، ١٩٧٨م.

٨- عايدة العلى: دولة المثلث بين فكى الكماشة، دار الفكر العربى، بيروت، ١٩٩٧م.

٩- عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٢٩٧هـ .

١٠- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٩٢م.

١١- على حسون: الدولة العثمانية، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٣م.

١٢-كمـــال السعيد حبيب: الأقليات والممارسة السياسية فى الخبرة الإســـلامية، رســـالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٩٥م، ج٢.
١٣- محمـــد جمـــيل بيهم: العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب، المطبعة الوطنية، بيروت، ١٩٥٧م.
١٤- موفـــق بنى المرجه: صحوة الرجل المريض، مؤسسة صقر الخليج، الكويت، ١٩٨٤م.
١٥-هـــدى درويـــش: الإســـلاميون وتركـــيا العلمانية، دار الآفاق العربية، ١٩٩٨م.
١٦- هـــدى درويش: العلاقات التركية اليهودية، دار القلم، دمشق، ٢٠٠١م.
١٧- يلمـــاز أوزتونـــا: تـــاريخ الدولـــة العثمانية، مؤسسة فيصل إستانبول، تركيا، ١٩٩٠م.
١٨- يلمـــاز أوزتونـــا، الدولـــة العثمانية، نقلاً عن آراء: الراهب الأرمـــنى ســـيحون. ويلامونت. Les Voyages, Du Loir, Corneille le Bruyn, Comte de Bonneval.

الدوريات :

١٩- جريدة الأنباء الكويتية ، مارس ، ١٩٨٤م.

المراجع التركية :

٢٠- Abdurrahman Kucuk, Donmeler Tarihi, Ankara, ١٩٩٢.